علاقات دارفور مع مصر والسودان قبل فتح محمد على للسودان

د. عثمان عمر فضل*

المستخلص :

كان لدارفور علاقات تجارية قوية وسياسية وثقافية مع كل من مصر والسودان منذ القدم وساعدها موقعها لتكون حلقة وصل بين دولتي وادي النيل ووسط وغرب إفريقيا ، كذلك موقع مصر واتصالها بدول شرق وشمال البحر المتوسط ساهم في أن تلعب مصر دور الوسيط التجاري بين هذه الأطراف .

منذ أقدم العصور كان طريق ودرب الأربعين أهم طرق التجارة بين مصر ودارفور، حيث تسير القوافل محملة بسلع دارفور وما يليها من دول إفريقيا وتتجه إلى مصر ومن ثم تعود إلى دارفور محملة بسلع الشمال .

كانت القوافل تحرسها حملات عسكرية، وللقافلة قائد يعينه السلطان ، وإلى جانب التجارة، تنقل الأخبار وتتبادل الهدايا بين المسؤولين وإنجاز بعض المهام السياسية ولسلطات دارفور مندوب بأسيوط. لم تكن مجاهل إفريقيا غريبة على قدماء المصريين فقد قاموا برحلات منذ 2570 ق.م وأطلقوا على دارفور بلاد {بام} وكانت الحمير هي وسيلة النقل عبر الطريق إلى أن حلت محلها الإبل فيما بعد .. وقد اهتمت دارفور بالتجار وكانت لهم مكانة كبيرة لدى السلاطين .

يعتبر السلطان أهم تاجر لما له من أموال مستثمرة في التجارة، لذا اهتم بها كثيرا. وكان لوصول القافلة مصر أثر كبير في انتعاش حركة التجارة في أسواقها.

علاقات دارفور التجارية مع مصر وما لعبته من دور في علاقات مصر بوسط إفريقيا :

* أستاذ مشارك - كلية الآداب – قسم التاريخ .

إن العلاقات بين شطري وادي النيل بصفة عامة قديمة منذ فجر التاريخ. ولما كانت دارفور ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوادي النيل الأعلى كان لها جانب كبير من هذه العلاقات، فبحكم ارتباطها لعدم وجود حواجز طبيعية، ولتداخل القبائل من جانب، ولعدم وجود ما يمنع الاتصال المباشر مع وادي النيل الأسفل ، نجد أن العلاقات بين دارفور ومصر وجدت منذ القدم ، سواء جاءت مباشرة أو عن طريق وادي النيل الأعلى.

ولما كانت التجارة تلعب الدور الأساسي في العلاقات بين الدول في كثير من الأحيان وبالتالي لها تأثير كبير في حياة الناس ، فقد لعبت التجارة الدور المهم في تشكيل العلاقات .

إن التجارة بين مصر والسودان بدأت منذ زمن مبكر في التاريخ بحكم تجاوزهما واتصالهما وبحكم التباين في كثير من منتجاتهما الزراعية وغيرها ، فكان أمراً طبيعياً أن يقوم تبادل بينهما حول هذه السلع ، إلى جانب ما لعبه الموقع الجغرافي لمصر ، واتصالها ببلاد الشرق العربي ، مثل بلاد الشام ، فوقوع مصر جنوب البحر الأبيض المتوسط جعلها تلعب دور الوسيط التجاري بين بعض دول أوربا والسودان لتصريف الكثير من تجارة هذه البلاد فيه ، وإمدادها في نفس الوقت ببعض السلع والمنتجات السودانية .

أن من الأسباب الرئيسية التي جعلت مصر ترتبط بالسودان وتهتم به اهتماماً كبيراً ، موقعه المهم حيث يعتبر السودان أرض القوافل التي تربط مصر بوسط وغرب إفريقيا وتجارة القوافل قديمة في تاريخ مصر مع هذه البلاد عبر دارفور ، ومن خلال هذه الطرق جاءت إلى مصر كثير من السلع ، ومن أهمها الذهب وريش النعام وسنّ الفيل والأبنوس والصمغ والزيت وجلود الحيوانات ، والحيوانات المتوحشة ، إلى جانب الرقيق الذي كان يشكل أهم السلع على الإطلاق لما له من رواج في الشرق[1].

كانت تجارة القوافل القديمة تقوم بحراستها حملات عسكرية ، ولكل قافلة قائد يعينه الملك ، ونستدل على ذلك من النقوش التي دونُت على مقابر هؤلاء

[1] نسيم مقار :أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصري الأول (1820/1821م) رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب ، جامعة القاهرة (56/1957م) ، ص: 444.

القواد من الأسرة السادسة المصرية [1] ، في منطقة أسوان ، وتلقي هذه النقوش ضوءاً مهماً على رحلات ومغامرات قدماء المصريين ،وعلى ما كان من علاقات بين مصر والسودان في الأزمنة الغابرة ، حتى أنه كان هنالك غموض حول الطرق التي سلكها المصريون إلى وسط إفريقيا [2] . إلا أن أغلب هذه الطرق أو أهمها كان يمر عبر دارفور، حلقه الوصل بين مصر والبلاد التي تقع إلى الغرب من دارفور ، ولأن الطرق التي تخترقها هي أسهلها وربما أقصرها وأكثرها نفعاً للتجار لما لهم في هذه البلاد من مصالح تجارية وغيرها. وهناك من يرجح أنه كان هناك طريق تجارى قديم يسير من الشرق إلى الغرب عبر دارفور ، ويبدو أنه خلال هذا الطريق وصلت السلع المصرية والمصنوعات المصرية إلى غرب إفريقيا [3].

لم تكن مجاهل إفريقيا غريبة على قدماء المصريين إذ لهم الفضل في إخراجها عن عزلتها . وفي بعض البلاد الواقعة إلى الغرب من دارفور وجدت آثار مصرية – يعود تاريخها إلى حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد – تدل على الصلة بين هذه البلاد وبين مصر والتي كانت قائمة منذ ذلك الوقت . ولم تكن هذه الصلات قاصرة على جانب واحد بل اشتملت على جوانب كثيرة ، اقتصادية وسياسية وعرقية واجتماعية .

ومن الأدلة على ذلك فكرة إلوهية الملوك وصناعة الحديد واستعماله في الحرب واستخدام العجلات الحربية ، نتيجة اتصالهم بمصر[4] .

أما الجانب الاقتصادي – وهو جانب مهم – فقد قوى من هذه العلاقات ، أو بمعنى آخر فإن التجارة هي التي مهدت لهذه العلاقات ، أو بمعنى آخر فإن التجارة هي التي

---

1 Rutwakil, G.A: Outline of the Ancent Histom of the Sudan SNR. Part, I 1918 P.4 1970, P.23.
Mutwakil A. Amcin: Ancent Trade and trade roules between qgypt and Sudan, part . I . 1970 , P. 23.

2 ARKILL A.J: A , Hist , if the sudan brem the earlinst , temes ti 1821 , London 1961 , P. 140.

3 Mutwaril : op. cit , P. 23

4 سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطي ، رسالة ماجستير – كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، رقم 722 ، ص: 23.122.

مهدت للصلات الأخرى ، إذ نشأت وازدهرت لأنها في الأساس تتبعها وتسير معها . والطرق التجارية – دائماً – هي التي تنير السبيل وتسهل المهام الأخرى .

ومما يدل على وجود هذا الأثر الاقتصادي أو التجاري بين مصر وغرب إفريقيا اكتشاف قطع برونزية في ساحل الذهب (غانا الحالية) ، مما يؤكد وجود صلة تجارية قديمة [1] كما أن هنالك بين الآثار المصرية صوراً يعود تاريخها إلى ما بعد سقوط الأسرة المصرية الأولى بخمسة أو ستة قرون . ومن هذه الصور يتضح أن بعض المغامرين من التجار المصريين اكتشفوا هذه الطرق التي توصل مصر بالبلاد التي تقع إلى الجنوب وإلى الغرب منها ، وربما وصلت قوافلهم إلى ما وراء بحيرة تشاد حتى وصلوا إلى شمال نيجيريا وجاءوا منها بسلع هذه المنطقة [2]، مثل : (العاج وجلود النمر وسن الفيل) ، مما يدل على وجود العلاقات التجارية بين مصر وغرب إفريقيا .

ولم يكن المصريون ليصلوا في ذلك الوقت إلى هذه المناطق ليعرفوها إذا لم يجدوا العون من أهل دارفور الذين عرفوا هذه المناطق قبل غيرهم ، بحكم التجاور والصلات التي تربطهم بهم ، فقد كانت دارفور تخضع هذه المناطق أحياناً أخرى تخضع لها سياسياً ، وكثيراً ما تدخل حكام دارفور في شؤون (واداي) فناصروا فئة على أخرى [3] ، وكان الخديوي إسماعيل حين تم له فتح دارفور أراد ضم سلطنة (واداي) استناداً على أن سلاطين دارفور كانوا يسيطرون على (واداي) [4].

نستدل من كل ذلك على أن العلاقات بين دارفور والدول التي تقع إلى الغرب منها كانت قوية ، لذلك فقد استطاعت أن تلعب دوراً رئيسياً في علاقات مصر مع هذه الدول ، لأنها كانت معبراً نحو المناطق التي تقع إلى الغرب منها ، لذا فمن المستبعد أن يعبر المصريون بلاد دارفور ودون أن يمد لهم الدارفوريون يد العون أو دون أن يكونوا هم الوسطاء الحقيقيين .

---

[1] المرجع السابق ، ص: 73.
[2] نفس المرجع ونفس الصفحة .
[3] نفس المرجع ونفس الصفحة .
[4] محمدين عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودات ، تحقيق محمد خليل عساكر ومصطفي محمد ، مصر ، القاهرة ، 1ذ965م ، صفحات : (73 – 74).

وفي تاريخ الأزهر ما يدل على أن طلاباً عديدين جاءوا من مناطق غرب دارفور وتلقوا التعليم في الأزهر الشريف ، وكانت لهم أورقة مثل رواق برنو ورواق صليح الذي كان يضم أبناء تشاد[1] . ولابد أن هؤلاء قد عبروا دارفور في طريقهم إلى مصر ؛ وفي عودتهم منها خاصة وكان لطلبة دارفور رواق خاص بهم . وفي الغالب أن الصداقات قد ربطت بينهم وبين هؤلاء الطلاب بحكم الدراسة وبحكم أنهم جميعاً من مناطق متقاربة مما يساعد على اصطحابهم لزملائهم الفوراويين حين يذهبون إلى بلادهم ثم يواصلون سيرهم لمناطقهم .

إن الحركة التجارية التي قامت منذ أيام الدولة المصرية القديمة وازدهرت على مر الزمان قد لعبت دوراً مهماً في هذا الاتصال سواء كان بين مصر وغرب إفريقيا عبر دارفور أو عبر سودان وادي النيل ودارفور، ففي كلا الحالين فقد لعبت دارفور دور الوسيط .

إن طرق التجارة التي عرفها المصريون القدماء ربطت مصر بهذه البلاد وكانت الدولة هي التي تتولى هذه المهمة ، فيرسل الملك قائداً على رأس القافلة . تذكر النقوش المصرية أن حرخوف كان من أعظم قواد القوافل ، وأنه قام بأربع رحلات ناجحة إلى بلاد يام (YAM) ، ومن المعتقدات إن بلاد يام هذه هي بلاد دارفور ، حيث أطلق قدماء المصريين عليها هذا الاسم ، وإذا كان هناك في التاريخ المكتوب شئ عن الرحلات التي وصلت إلى بلاد دارفور فإن رحلات حرخوف هي أول ما سجله التاريخ [2]. فقد ذكر أن الملك مرنر أرسل حرخوف على رأس حملة ليفتح طرق المواصلات مع بلاد يام (دارفور) في عام (2570 ق.م).[3]

إن النجاح الذي حققته هذه الرحلة جعل حرخوف يقوم بثلاث رحلات عن طريق النوبة إلى الجنوب وقد توغل في رحلته الثالثة إلى مكان مجهول في الجنوب وعاد

---

[1] دفتر رقم (21) عابدين ، صادر تلغرافات ، التلغراف العربي ، رقم 238، بتاريخ 15 ذو العقدة 1261هـ ، إرادة سنية إلى حمدار السودان بالفاشر .
[2] نفس سر الختم عثمان ، المرجع السابق ، ص: 76.
[3] المرجع السابق الصفحة نفسها .

بثلاثمائة حمار محملة بالبخور وريش النعام وجلود النمر والسن وزيت الخروع والملح وغير ذلك [1]. وفي رحلته الرابعة جاء بقزم راقص آثار الإعجاب في بلاط الملك.

كشفت هذه الرحلات بجلاء بعض الطرق التي استخدمت في الأزمنة الغابرة والتي تقود إلى المناطق غير المعروفة في إفريقيا والتي لم تذكر الوثائق شيئاً عنها . كما كشفت وسائل المواصلات التي استخدمت ؛ وكذلك أصناف السلع التي حملت. إلى جانب أهميتها حيث تابعوا هذه الرحلات في السنوات التالية .

هذا النجاح فتح الطريق لتجارة القوافل إلى السودان على مر العصور [2] ، غير أن الأثريين والمؤرخين لم يؤكدوا إلى أي حد وصلت هذه القوافل في داخل إفريقيا ، ومهما يكن من أمر فإن قوائم السلع التي ذكرتها الوثائق تنير السبيل لأماكنها ، وتشمل هذه على الأخشاب وسن الفيل والزيوت والحبوب والبخور وجلود النمر التي استعملت لباسا في الاحتفالات الرسمية في عهد الإمبراطورية القديمة . وكذلك الذهب ، ويتضح من ذلك أن وسط وجنوب وغرب السودان هي الأماكن التي تم معها جل النشاط التجاري [3].

أرسل المصريون مقابل ذلك إلى السودان بعضاً من السلع مثل : (الخرز والعقود والمراهم والعسل والمنسوجات والأواني النحاسية والأسلحة)[4]. هذا وقد ذكر المؤرخون مراراً بلاد يام والنوبة كمناطق تجارة لقدماء المصريين [5].

إن من أشهر الطرق التي سلكها حرخوف في هذه الرحلات طريق درب الأربعين وهو طريق قديم ولا زال يستخدم إلى يومنا هذا في التجارة بين مصر ودارفور . ويقال إنه توغل في هذه الرحلات حتى بلغ إقليمي كردفان ودارفور [6]. وليس معروفاً

---

[1] المرجع السابق نفسه ، ص: 124 ، نقلاً عن عبد الحميد (المغريزي) ورقة (20 – 24) القاهرة ، مخطوط 1931م.

[2] د. حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، القاهرة ، ج1 ، ص:26.ودائرة المعارف الإسلامية ، ج9 ، طبعة ثالثة ، مادة دارفور ، ص: 83.

[3] Mutwakil: op, cit, P.23.

[4] Ibid, P, 24. and Reisnes . op cit , P.9

[5] Mutwakil: op, cit, P. 24.

[6] Ibid , P. 24.

متى بدأ استخدام هذا الطريق لأول مرة ، ولكنه طريق موغل في القدم [1]. وكانت وسيلة المواصلات التي استخدمت خلال طرق القوافل هي الحمير في المقام الأول والحمالة البشريين [2] ، إذ لم يكن استخدام الإبل معروفاً في ذلك الوقت المبكر ، وحتى دخولها في العهد المروي في السودان [3] بقي الحمار الحيوان الأكثر أهمية للحمل في وادي النيل ، ولأن الحمار لا يستطيع أن يعبر الرمال بسهولة ولا يستطيع أن يبقى فترة طويلة دون طعام أو شراب بعكس الجمل ، اقتضى هذا الاحتياط في الأمر ، لذا فقد كانت القافلة تتكون من عدد كبير من الحمير ليحمل البعض الطعام والشراب وليحمل البعض الآخر البضائع . ولهذا السبب فقد كانت الطرق التي كانت تسير بجوار النيل تفضل على الطرق الصحراوية [4] . وعليه يعتقد أن القوافل التي كانت تسير إلى دارفور ربما كانت تسير أحياناً بجوار النيل تم تتجه غرباً مع وادي المقدم أو وادي الملك ؛ حيث إن هذه الطرق كانت مطروقة في ذلك الوقت ، أو تتجه غرباً من أقرب نقطة من النيل إلى دارفور ، هذا ويجب ألا يغيب عن البال أن العوامل المناخية في ذلك الوقت تختلف كثيراً عن الوقت الحاضر مما جعل القوافل التي كانت تسير في الصحراء لا تعاني كثيراً في البحث عن الطعام والشراب . إن النقوش التي حوتها مقبرة الفرعون ساحورع من فراعنة الأسرة الخامسة (2650 ق.م) تدل على اتخاذ الحمار وسيلة للنقل في ذلك الوقت [5]. وإذا كان حرخوف قد أوفد عام (2750 ق.م) ليفتح طرق المواصلات مع بلاد يام ، وإذا كان طريق درب الأربعين من أشهر الطرق التي سلكها في رحلاته ، فمعنى ذلك أن اختراق طريق الأربعين لم يكن صعباً في غياب الجمل بل كان مطروقاً ، وقد استخدم الحمار والجمل ، وكان الحمالون من الرقيق [6] ، ومهما قيل عن صعوبة استخدام الحمالين لبعد المسافة وقلة ما يحملونه من السلع ، ينبغي ألا يغيب عن البال بأن الهدف الأساسي هو بيع هؤلاء الذين اعتبروا

[1] Ibid , P. 25.
[2] . Reisner , opcit , P. 13.
[3] .Mutwakil : op , cit , P.25.
[4] سر الختم عثمان : المرجع المذكور ، ص: 153 – انظر : دريقون ، مصر ، ص: 332.
[5] .Mutwakil : Op , cit : P.26
[6] Ibid.

أهم سلع التجارة ، فمن ناحية يستفاد منهم كسلعة رائجة ومن ناحية أخرى يساعدون في حمل بعض الأمتعة .

سمي طريق درب الأربعين بهذا الاسم لأن الرحلة تستغرق حوالي الأربعين يوماً ، يخرج هذا الطريق من موقع أسيوط الحالية في مصر ، وقد وصفه التونسي الذي سلكه أثناء توجهه إلى دارفور عام (1803م).

فذكر الأماكن التي مر بها والأيام التي استغرقتها الرحلة ، فمن أسيوط تمر القافلة بالخارجة وأبريس ثم شب وهو المكان الذي يستخرج منه الشب ويكون سلعة من السلع التي تصدر إلى مصر ، ثم واحة سليمه وهي نقطة قريبة من بلدة عكاشة التي على الشلال الثاني .

تتجه القافلة من سليمة إلى بلدة لقبة ثم زغاوة وهي المكان الذي يؤخذ منه الملح والعطرون إلى دارفور ، كما يباع كذلك في مصر ، ويبعد هذا المكان مسيرة عشرة أيام من دارفور ، وهنا يرتاح المسافرون استعداداً لقطع طريق طويل يوصلهم إلى المزروب . وهي بئر في أول أعمال دارفور ، ومن هناك إلى بئر السونية [1] ؛ بالقرب من بلدة سوين حيث يقيم فيها حاكم هذه المنطقة ، وهنا يجب على كل الأجانب وتجار دارفور القادمين البقاء فترة من الزمن حتى يحاط السلطان علماً بمقدمهم وحتى يسددوا ما يفرض عليهم من ضرائب [2]. وكانت ملتقى التجار الذين يتجرون مع مصر ، ومن هنا جاءت أهميتها التجارية . من هذا المكان تتفرق القافلة لأن المسافرين يتجهون نحو أماكنهم ، إلا أن الغالبية تتجه نحو كوبي التي هي من أهم المراكز التجارية في دارفور وأكثر مدنها ازدحاماً بالسكان ، كما تلتقي عندها عدة طرق في شمال دارفور[3] ، وتشتهر بزراعة القمح من مياه الآبار [4] ، وكان من سكانها المصريون خاصة من أهل الصعيد وقليل من طرابلس الغرب وبعض آخر من جهات

---

[1] التونسي : المرجع المذكور ، ص: 23.

[2] Browne , W.G. Travels in Africa , Egupt , syria , 1792 – 1799 . London 1806, PP. 189 – 190.

[3] التونسي : المرجع المذكور ، ص: 55.

[4] المرجع السابق ، ص:157.

السودان الأخرى . ونعتقد أن وجود هؤلاء الأجانب كان له أثر في أن تشتهر زراعة القمح فيها وفي المدينة التجارية الأخرى كبكابية . كما اشتهرت بزراعة بعض الخضروات التي لا توجد إلا نادراً في مناطق دارفور الأخرى .

ومن هذه الخضروات : (الخيار والفقوس الطويل والباذنجان والملوخية)، إلى جانب البامية التي تزرع في المناطق الأخرى ، كما توجد في هاتين المدينتين التجاريتين أشجار النخيل المعروفة في مصر والسودان الشمالي [1] ، إذ ربما جاء بها التجار الأجانب حين كانت ثمار البلح من ضمن ما يتزود به من زاد ، ومما يدل على كثرة سكان كوبي وجود جامعين بها أسوة بمدينة الفاشر التي كانت العاصمة ، في حين أن في كل بلدة شهيرة جامعا واحدا [2] . وكان أغلب سكانها من الجلابة (الأجانب) وكان لهم وزن كبير لدى الدولة لما يلعبونه من دور بارز في اقتصاديات البلاد. مما جعل السلاطين يخاطبونهم في كبريات الأمور ، ومنهم السلطان إبراهيم ، حين تولى السلطة ، إذ خاطب في منشور خاص الجهات ، كما خص تجار كوبي ضمن من خصهم [3] حين نعى إليهم أباه السلطان حسين وتوليه هو أمر السلطنة . وهذا دليل على أن لهؤلاء الجلابة مقاما كبيرا في الدولة .

من المسافرين بالقافلة من يتجه إلى كبكابية – القريبة من الفاشر – وكانت من المدن التجارية المهمة وتعتبر المنفذ الرئيسي للطرق المؤدية إلى الأقاليم الغربية في ذلك الوقت ومحطة لمنتجات هذه الأقاليم [4] ، وشبهها التونسي بأنها أشبه ببلاد ريف مصر ، إلا أنها أعمر منها وأكثف سكاناً وأهلها من التجار الأغنياء [5] ، ولهم من الخضروات التي توافق طعام الأجانب وفي سوقها ما يشبع رغبة الشاري ، وكان يعقد مرتين في الأسبوع مما يدل على كثرة السلع والمشترين الذين يقصدونه من جهات كثيرة ، وكان من بين الأجانب عدد كبير من المصريين الذين هم من

---

[1] المرجع السابق، ص:306.
[2] نعوم شقير : المرجع المذكور ،ج2،ص:307.
[3] المرجع السابق ، ص: 146.
[4] Browne : op . cit , PP 234 – 235.
[5] التونسي : المرجع المذكور ، ص:61.

الصعيد ، كما كانوا يشكلون الأغلبية بين سكان مدينة أخرى ، وهي مدينة (كورمة) ، - وتقع إلى الجنوب من كوبي وعلى مسافة قريبة منها [1] - وغيرها من المدن التي يوجد بها التجار الأجانب حيث نجد من بينهم المصريين ، وهذا دليل على وجود العلاقات التجارية بين مصر و دارفور.

كان تجار طريق الأربعين أكثر امتيازاً من تجار الطريق الشرقي أي طريق بربر وشندي وسنار . وكانت لهم سمعة حسنة وشهرة واسعة وكانوا يستخدمون أموالاً كبيرة في التجارة ، ولكثرة معاملاتهم وصداقاتهم بأسيوط، لذا كان من السهل عليهم أن يقترضوا ما يشاءون من أموال نظير توريد ما يحتاج إليه المصريون من سلع دارفور وما جاورها من الأقاليم الغربية المجاورة [2] . ولا غرابة في أن يكون أحد أعيان أسيوط هو القائم بأعمال سلطان دارفور في مصر فيما يختص بالمهام التجارية وغيرها ، حيث اعتاد سلاطين دارفور أن يرسلوا سنوياً محملاً وصرة إلى مكة عن طريق مصر مع كمية من الريش والصمغ وأعداد من الرقيعة لتباع في مصر ، وبالطبع فإن الوكيل هو الذي يتولى هذه المهمة . وكان القائم بأعمال السلطان في مصر في وقت من الأوقات هو المعلم حبيب شنودة [3] ، أحد أعيان أسيوط وربما كان ذلك في حوالي سنة (1664م).

كان السلطان يعتبر أهم تاجر في دارفور [4] ، ولما له من إمكانات تمكنه من أن يكون في هذا الموقع ، إذ هو على رأس الطبقة الارستقراطية التي استفادت من التجارة فازدادت ثراء باتساع نطاق التبادل التجاري [5] ، لأن في وسع هذه الطبقة الغنية القيام بهذا العبء الكبير لما يقتضيه من مال وجهد كبيرين ، فالقافلة التي تسير أكثر من أربعين يوماً تحمل أصنافاً متعددة من منتجات البلاد ، ثم تعود بمنتجات

[1] Burchart : Op : cit PP .236
[2] Ibid , PP 305 – 306.
[3] زاهر رياض : مصر وإفريقيا ، طبعة أولى ، القاهرة ، 1976م ، ص: 120.
[4] Browne : op . cit , PP 301..
[5] محمد فؤاد شكري : مصر والسودان ، طبعة ثانية ، القاهرة ، 1958م ، ص: 279.

البلاد الأخرى ، فلا شك أن أصحابها يمتلكون ما يمكنهم من تمويلها ، بل تلبي احتياجات البلاد التي تقع إلى الغرب منها .

كما أنها منفذ لتجارة هذه البلاد مع مصر ، فهذا العمل الكبير لا يمكن أن يقوم به إلا أصحاب الثروات الذين يحتكرون التجارة . وعليه نجد من يؤسسون الشركات التجارية في دارفور ، ومنهم الشيخ عبد الغني النازي وكيل دولة المغرب الأقصى بمصر ، والشريف العمراني والحاج الحبابي المغربي [1] ؛ وغيرهم من تجار دارفور الذين تسمح إمكاناتهم بالدخول في هذا المجال ، والذين ورثوا هذا العمل عن آبائهم ، وقد كان الرقيق يشكل أهم السلع في هذه التجارة ، لرغبة أهل الطبقتين الغنيتين والذين هم من الأصول العربية في استخدامهم والاعتماد عليهم في الأعمال المنزلية والزراعية ، كما جندوهم في جيوشهم [2]. هذا وقد استوردت دارفور الرقيق من برنو وباقرمي وبرقو ودار بندة ، وكان السلاطين يجهزون الحملات كذلك لصيد الرقيق من بين قبائل الفرتيت في الأجزاء الشمالية الغربية من بحر الغزال والجنوبية من دارفور [3] ، بالإضافة إلى الضريبة التي كانوا يأخذونها من بعض المناطق في شكل رقيق . وقد اشتهرت أسواق خاصة بهذه التجارة في مناطق مختلفة من بينها الفاشر والأبيض وسنار وشندي وسواكن وبربر ودنقلا [4]. ومن هذه الأسواق يصدر الرقيق إلى جهات كثيرة منها مصر التي اهتمت بهم ؛ وكذلك إلى مناطق السودان الأخرى ، لأن الرقيق كان يجندون في الجيوش أيام الطولونيين والإخشيديين والفاطميين للدفاع عن أرض مصر [5] . إن قصور سلاطين هذه الدول إلى جانب قصور سلاطين الدولتين المملوكيتين تحكي في بذخها وترفها شيئاً كثيراً عن سلع ومنتجات دارفور من :

---

[1] على إبراهيم عبده : مصر وإفريقيا في العصر الحديث ، طبعة أولى ، القاهرة ، 1966م ، ص:28.
[2] زاهر رياض : المرجع المذكور ، ص: 120.
[3] محمد فؤاد شكري : مصر والسودان ، ص: 279.
[4] المرجع السابق ، ص: 279.
[5] زاهر رياض : المرجع المذكور ، ص: 74.

(ريش النعام وسن الفيل وغيرها)[1]. وظلت تجارة هاتين السلعتين رائجة حتى القرن التاسع عشر عندما احتكرها والي مصر محمد على باشا ضمن ما احتكره من السلع التجارية [2].

إن كمية السلع التي كانت تأتي إلى مصر بطريق الأربعين سواء من دارفور أو عن طريقها من تجار واداي وباقرمي وبرنو وغيرهما من الجهات التى تقع إلى الغرب منها [3] تظهر بجلاء حجم تجارة دارفور مع مصر ، وكذلك الوارد إلى دارفور من مصر أو غيرها من الدول ، فقد كان متوسط عدد الإبل في قافلة دارفور يبلغ أحياناً خمسة عشر ألفا [4] . يصف كتاب وصف مصر قافلة دارفور التي وصلت مصر عام (1799م) ولم يذكر عدد إجمالي الأبعرة حين ذكر أصناف السلع المختلفة من سن الفيل وتمر الهندي والصمغ والسمسم وريش النعام وقرون الخرتيت وقرب الماء والعطرون والشب مع ذكر الأثمان والأوراق من كل صنف [5]. هذا إلى جانب الأصناف الأصناف الأخرى التي لم يرد ذكرها ومنها مثلاً النحاس وحبة العين والأقداح الخشبية والأطباق والعسل وغير ذلك [6]. وتعبر هذا الطريق إلى مصر أثنتا عشرة قافلة في السنة ، وتزداد إلى أكثر من ذلك في بعض السنيين [7]. وبعملية حسابية تستطيع أن تعرف حجم هذه التجارة في ذلك الوقت . وإذا أضفنا إلى ذلك عدد الإبل والرقيق وغيرها نخرج بنتيجة واضحة ، وهي أن التجارة بين دارفور ومصر كان حجمها كبيراً .

ومما يدل على أهمية هذه التجارة وما تسببه من راحة نفسية واطمئنان ما كان يجيش في نفوس سكان مصر عامة وسكان الصعيد خاصة من فرح وسرور

---

1 أحمد أحمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري ، (1882/182م) رسالة دكتوراة ، ص: 23.

2 نسيم مقار : المرجع السابق ، ص: 448، نعوم شقير : المرجع المذكور ، ج2 ، ص: 146.

3 نسيم مقار : المرجع السابق ، ص: 448.

4 نعوم شقير : المرجع المذكور ، ج2 ، ص: 123.

5 أحمد أحمد سيد أحمد : المرجع السابق ، ص: 123.

6 نسيم مقار : المرجع السابق ، ص: 123.

7 نفس المرجع : ص: 142.

عندما تأتي قافلة دارفور لما تتركه فيهم من أثر واضح في انتعاش حركة الأسواق المصرية [1].

ومن جانب آخر فإن إقامة هؤلاء بين ظهرانيهم لفترة من الزمن قد تطول إلى شهور حتى ينهوا أعمالهم التجارية ، تجلب إلى حياتهم الراحة فهذه الإقامة لهذا العدد ممن تشملهم القافلة تعود بدخل طيب لمن يقومون بخدمتهم . هذا إلى جانب ما ينتفعون به من لحوم الإبل التي كانت تستغني عنها القافلة فيشرونها بأسعار رخيصة .

كانت مصر تصدر السلع والمنتجات السودانية إلى أوربا عن طريق ميناء الإسكندرية وحسبما جاء في كتاب وصف مصر فإن الكميات التي صدرت كانت كبيرة نسبياً ، حيث صدرت حوالي خمسمائة قنطار من الصمغ . ومائة قنطار من التمر هندي إلى البندقية وتريستا ، وحوالي ثمانمائة رطل من ريش النعام إلى تريستا (1799م).

ومعنى ذلك أن مصر لعبت دور الوسيط التجاري بين أوربا وأقاليم السودان بما فيها دارفور ، كما لعبت الأخيرة نفس الدور بين مصر ودول غرب إفريقيا . بذلك نجد أن قافلة دارفور كانت تعود بالسلع والمنتجات المصرية والأجنبية والتي كانت تتكون من الأقمشة الحريرية والقطنية ، وكان على رأس قائمة السلع التي حملها تجار دارفور ثياب مختلفة الأشكال والألوان من مصانع مصر الشهيرة ، كذلك سلع من الهند وجنوب غرب آسيا من أقمشة حريرية وشالات وبن وخرز ، والسمبل الذي يستعمل بعد تركيبه مرهماً لتنظيف البشرة ، ومن السلع الأوربية نجد الكهرمان وقطع المرجان والأقمشة القطنية والجوخ والأمواس ومعدن الرصاص والقصدير والنحاس القديم لاستخدامه في حلي النساء ، إلى جانب عدد قليل من البنادق وبعض من السيوف الألمانية وكان يتم تركيبها في دارفور . وأيضاً البارود في شكل خراطيش ، وغير ذلك من السلع التي تأتي إليهم عن طريق مصر.

[1] نعوم شقير : المرجع المذكور ، ص: 146 . ونسيم مقار : المرجع نفسه ، صفحات : (450 – 453) نقلاً عن كتاب وصف مصر .

وإذا كانت قافلة دارفور سنة (1799م) قد حملت هذه الأشياء [1] في عودتها إلى بلادها إلى جانب الحلي الذهبية والفضية والسوميت (نوع من الخرز) ، وغير ذلك من أنواع الخرز المطلوب عندهم [2]. فمعنى ذلك إن هذه الأصناف كانت تستوردها دارفور لسد احتياجاتها وربما لتصديرها أيضاً إلى الدول المجاورة لها .

هكذا نجد أن العلاقات التجارية بين دارفور ومصر كانت قديمة ووثيقة وأن تعطيلها أو انحرافها عن مصر يسبب للجانبين كثيراً من الضيق والمتاعب ، ومن الطبيعي أن هذه العلاقات وما صاحبها من تبادل للهدايا بين الحكام حيث جرت العادة أن يقدم حاكم أسيوط هدية لسلطان دارفور يتسلمها رئيس القافلة ، مقابل ما كان يتسلمه المندوب الذي كان يستقبل القافلة في كل من بريس والخارجة من هدايا السلطان [3].

كما أن هناك وكيل السلطان في أسيوط ولابد أنه كان يلعب دوراً مميزاً في العلاقات بين الحكام . هذه الأشياء قد خلقت الاتصالات التي قويت بمرور الزمن بين الجانبين فالسلطان (عبد الرحمن الرشيد) كانت علاقته بمصر قوية ، وفي أيامه اتسع نطاق التجارة [4] ، وقد كان خاتم السلطان يصنع في مصر ، ومما يدل على ذلك أنه حين تولى السلطان (محمد الفضل) جاء مندوب خاص إلى مصر لتجديد الخاتم[5] ، هذا إلى جانب العلاقات الثقافية التي كانت قائمة لوجود الأزهر الشريف بمصر وحاجة دارفور إلى العلماء الذين يفدون إليها ، وكانت القوافل التجارية هي الوسيلة الوحيدة لنقل هؤلاء كما كانت الوسيلة لنقل الأخبار [6].

وإذا حدث أي تعكير في جو العلاقات بين المسؤولين ، كان السبب يعود دائماً إلى ما يصيب العلاقات التجارية من عراقيل ، لأنها أساس المصالح وهي التي تكيف العلاقات الأخرى ، فالقيود التي تفرض على التجارة كانت تمثل العقبة

---

[1] نعوم شقير : المرجع السابق ، ص: 146.
[2] نعوم شقير : المرجع السابق ، ص: 146.
[3] نسيم مقار : المرجع السابق ، ص: 459.
[4] نعم شقير : المرجع السابق ، ج2 ، ص: 122.
[5] التونسي : المرجع المذكور ، ص:51.
[6] المرجع السابق نفسه ، ص: 352.

الكبرى ، وهذه القيود هي التي نسميها بالضرائب التي تفرض على التجارة خاصة من الجانب المصري . وبما أن السلطان هو صاحب المصلحة الكبرى في التجارة باعتبار أنه التاجر الأكبر يكون الأثر واضحاً وسريعاً لأن مصلحته قد أضيرت ، وبذلك ينعكس هذا الأثر على العلاقات الودية بين الجانبين .

في زمن حكم المماليك يبدو أنهم ضيقوا الخناق على القوافل التي كانت من دارفور وعطلوا التجارة بينها وبين مصر [1] ، بما كانوا يفرضونه من الضرائب العالية والشروط التي فرضتها فيما يختص بتسليم السلع والبضائع التي تأتي بها القافلة [2]. مما أدى إلى استياء السلطان وغضبه ، وانعكس هذا في توقف التجارة بين البلدين .

وإذا كان هذا التوقف قد أصاب مصر بقدر ، فلابد أن الجانب الآخر لم يخل منه ، وظهر هذا جلياً من موقف السلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور ، الذي كان سروره عظيماً عندما انتهى حكم المماليك الذين تسببوا في هذه القطيعة على يد الحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر – فقد أرسل السلطان كتاباً إلى القائد الفرنسي – نابليون بونابرت (مع خبير القافلة) يهنئه فيه بفوزه على أعدائه ، وذلك على الرغم من الخلاف الديني، ويطلب فيه من نابليون أن يعمل على حماية الخبير ومن معه من إتباع وعبيد [3].

مما يدل على أن الأمن لم يكن متوافراً كما ينبغي لقوافل التجارة في العهد المنصرم ، لذا طلب منه الحماية لأفراد القافلة . وأراد السلطان أن يفتح صفحة جديدة في العلاقات السياسية بين البلدين في ظل هذا العهد لتسير التجارة كما كانت في الماضي ، لذلك كلف الخبير بأن يؤكد لنابليون صدق مودة السلطان التي يريد لها الدوام [4] . ولأن استمرار التجارة من مصلحة البلدين فقد اهتم السلطان بما يحدث في مصر من تغيير وإلا لما أبدى ارتياحه من زوال سلطان المماليك . هذا وقد أبدى السلطان

[1] نعوم شقير : المرجع السابق ، ج2 ، ص: 122 . Nightingale : op ;cit : P.289
[2] نعوم شقير : المرجع السابق ، ج2 ، الصفحة نفسها Browne : OP : 225
[3] إسماعيل سرهنك : المرجع المذكور ، ج2 ، ص: 32 . ونعوم شقير : المرجع السابق : ج2 ، صفحات : (122 – 123).
[4] إسماعيل سرهنك : المرجع المذكور ، ص: 32 ونعوم شقير ، ج2 ، ص: 123.

سروره مما يجده الأجانب من حسن رعاية ومعاملة [1] في ظل النظام الجديد لأن هذا يجعل رعاياه في مأمن .

أهتم نابليون برسالة السلطان فرد عليه فور وصوله من مهمته في بلاد الشام ، وضمن رسالته طلب الغي عبد من الأشداء الذين يصلحون للتجنيد مبدياً استعداده لدفع الثمن ومطمئناً السلطان على أن القافلة سيكفل لها الأمن والحماية وأنه أصدر أوامره بذلك [2].

جاء في كتاب وصف مصر أن السلطان قد استجاب لطلب نابليون فجاءت القافلة سنة (1800م) وتضم أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، واثني عشر ألفاً من الرقيق يقودهم خمسة وعشرون رجلاً على رأسهم ابن السلطان نفسه [3]. إن هذا يعكس مدي اهتمام السلطان بأمر العلاقات مع مصر ، لذلك أرسل وفداً على مستوى عال ، بل أرسل ابنه على رأس هذه القافلة ليجد الاهتمام الذي يماثله من الجانب الآخر ، وبذلك تتوطد العلاقات فتسير الأمور سيرها الطبيعي إن لم تكن أحسن مما كانت .

ونستدل من ذلك أيضاً فيما يختص بأمر رؤساء القوافل أنهم إلى جانب المهام التجارية كانوا يقومون بدور السفراء المتنقلين لبلادهم ، فيكلفهم السلطان بأداء مهام معينة كما يحملون إليه رسائل الجانب الآخر ، لذا ربما كان السلطان هو الذي يختار قائد القافلة ممن تتوافر فيه شروط خاصة .

يقال عن هذه القافلة أن حظها كان عاثراً ، حيث إنه في ذلك الوقت بدأ مركز الفرنسيين يسير نحو الانحدار ، ولم تكن الأحوال في مصر على ما يرام ، فقد تعرض رجال القافلة إلى معاملة سيئة في مصر ، وأدى ذلك إلى انقطاع الصلات التجارية بين مصر ودارفور مرة أخرى . وكان في هذه المرة انقطاعاً يكاد يكون تاماً واستمر حتى عام (1817م) [4].

---

[1] إسماعيل سرهنك : : ص: 23. وشقير : 123.
[2] إسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص: 123 ، وشقير : ص:123.
[3] نسيم مقار : المرجع المذكور ، ص: 460نقلاً عن كتاب وصف مصر ، ج2 ، ص: 631 .
[4] تسنيم منار : المرجع المذكور ، ص: 460 . نقلاً عن : Jammed M.obserl ation Darber ele lnil Blanc P.8

وفي هذا العام حاول والي مصر (محمد على باشا) جاهداً أن يعيد تجارة دارفور مع مصر إلى مجراها الطبيعي ، إلا أنه حين جاءت القافلة تعرض رجالها لسوء المعاملة لأن الوالي قد استولى على جميع السلع التي جاءوا بها عدا التمرهندي ، ولم يعطوا التجار إلا الأسعار التي حددتها الدولة [1]. وكانت هذه السياسة جزءاً من سياسة محمد على الاحتكارية في مصر والتي كانت بالطبع لا تشجع مثل هؤلاء التجار بأن يستمروا في استيرادها مرة أخرى.

هكذا نجد أن التجارة قد توقفت مرة أخرى لفترة من الزمن مما أزعج محمد على الذي كان يود للتجارة أن تزدهر ، ولذا كان من ضمن أهدافه في فتح السودان أن يستغل تجارة السودان إلى جانب أهدافه الأخرى فما كان منه إلا أن أرسل حملته المشهورة إلى السودان.

إن السياسة التي اتبعها محمد على إزاء السودان جعلت سلطان دارفور في حذر شديد منه ، لذا فقد أوقف السلطان التبادل التجاري مع مصر خوفاً من أن يحدث مالا تحمد عقباه لقوافل التجارة ، وقد ساءت العلاقات من جراء استيلاء والي مصر على إقليم كردفان الذي يمثل الجزء الشرقي من سلطنة دارفور فتخوف السلطان من أن تمتد يد مصر إلى دارفور نفسها.

علاقات دارفور السياسية والتجارية مع أقاليم السودان المختلفة :

إن العلاقات بين دارفور وأقاليم السودان قديمة ، فالهجرات التي جاءت إلى دارفور كان الكثير منها من هذه الأقاليم على مر العصور ، فالثقافة المصرية التي تأثرت بها دارفور جاءتها أيضاً عن طريق الأقاليم التي تقع إلى الشرق منها ، كما جاء الإسلام إلى دارفور من ناحية الشرق أيضاً ، والقبائل العربية التي هاجرت إليها جاءتها من هذا الطريق كذلك . وانتشرت بين دارفور وكردفان ولا زالت أماكنها تدل على مدى الاختلاط بين سكان المنطقتين .

[1] تسنيم مقار : المرجع السابق نفسه و الصفحة نفسها.

ربطت التجارة بين دارفور وأقاليم الشرق برباط وثيق ، أنعكس أثره على العلاقات الاجتماعية وغيرها ، فلا حدود فاصلة بين دارفور وكردفان لتداخل القبائل ورحلاتها من أجل الماء والكلأ .

ويذكر التاريخ أن الصلة كانت قوية بين المسبعات وهم من حكموا كردفان وبين سلاطين دارفور ، وكانت صلة دم وقرابة ، ففي المشهور أن سلطان دارفور السلطان (سليمان صولون) الجد الأول لسلاطين الفور كان له أخ يدعى (مسبع) فاقتسم هو وأخوه الإقليمين (دارفور وكردفان) واتفقا وتعاهدا على ألا يطمع أحد منهما في ملك الآخر .

استمر الحال هكذا إلى أن توفيا وانتقل كل من البلدين إلى أبنائهما فتوارثوا الحكم ، ولم يحدث بين الجانبين ما يعكر صفوا الآخر [1]. حتى كان عهد السلطان محمد تيراب (1768 – 1787) ، الذي عاصره من أحفاد المسبع على كردفان السلطان (هاشم المسبعاوي) ، الذي بدأ يوسع من رقعة بلاده ، حتى أنه اعتدى على مناطق نفوذ دارفور ، وبدأ يغير على حدود دارفور طمعاً في الاستيلاء عليها ، فسببت إغارته هذه قتل وسلب عدد من رعايا دارفور واغتنام ممتلكاتهم [2].

فلما ضاق السلطان تيراب ذرعاً بأعماله ، كتب إليه مذكراً إياه بصلة القربى التي تربط بينهما ، إلى جانب علاقات الود التي تسود بين الطرفين أرسل له يقول : " يا بن عمي أرسلت سراياك على أطراف بلادي وأنت تعلم ما بيننا من المودة ، ولم يقع منا ما يخالف المودة ، مع أنك تعلم أن الذين أخذت أموالهم مسلمون ، والذين قتلوا موجودون ، وهذا العمل لا يبيحه أحد ولا يعقله . فإذا وصلك كتابي هذا فانته وإلا سيلقي الباغي مصيرة والسلام " [3].

لم يهتم هاشم السبعاوي بهذا الخطاب ، بل عاد إلى إرسال السرايا لغزو حدود دارفور مرة أخرى ، فغضب السلطان تيراب وصمم على تأديبه ، وجمع جيشاً كثيفاً تولى قيادته بنفسه واصطحب معه رؤساء الولايات والأمراء والوزراء وعلية القوم

[1] التونسي : المرجع المذكور ، صفحات : (83- 84).
[2] المرجع السابق : ص: 83.
[3] المرجع السابق : ص: 86.

وسافر بجميع جيوشه قاصداً كردفان [1]. وترك ابنه إسحاق (الخليفة) وكيلاً عنه في (ريل).

وعندما علم هاشم بمقدم جيش دارفور وتأكد لديه عدم استطاعته مواجهته، فما كان أمامه إلا أن يفر تاركاً كردفان ومحتمياً بسلطان الفونج في سنار ومعه حاشيته وعائلته ، مما مكن سلطان دارفور من دخول كردفان دون حرب.ثم صار يرسل السرايا إلى أطراف البلاد حتى أخضعها، وحصل وجلب الأموال واستقامت له الأمور[2].

وقد ذكر أن السلطان تيراب اقتفى أثر غريمه حتى وصل النيل قرب أم درمان وألحق الهزيمة بجيش العبدلاب الذين هم أصحاب السلطة في الجزء الشمالي من سلطنة الفونج حسب اتفاقهم مع الفونج – الذين حاولوا منعه من الوصول إلى النيل وتبعه حتى حصل من العبدلاب على نحاسهم المسمى بالمنصورة . وقد اعتاد الفور الاحتفال سنوياً بيوم تجليد هذا النحاس المغتنم[3].

هكذا استطاع سلطان الفور أن يمد نفوذه إلى النيل ويضم كل إقليم كردفان ولم يمنعه من الزحف على سنار إلا النيل الذي لم يجد ما يمكنه من اجتيازه. فمكث أشهراً حتى يتمكن من الحصول على مرامه . وأدى هذه المكوث إلى ملل رجال السلطة ، وتحت إلحاحهم عاد السلطان أدراجه إلا أن المنية عاجلته في بلدة بارا بإقليم كردفان [4].

وفي عهد خلفه السلطان عبد الرحمن الرشيد (1787 – 1799) تمكن هاشم المسبعاوي من العودة إلى كردفان والاستيلاء عليها من يد عامل السلطان ، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة الأب الشيخ محمد كرا حاكم الولاية الشرقية إلى كردفان واستطاع أن يخلصها من هاشم وبقى هناك سبع سنوات حكم فيها

[1] المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها .
[2] المرجع السابق : ص: 88.
[3] نعوم شقير : المرجع المذكور ، ج2 ، ص:120.
[4] المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها .

كردفان حكماً مستقراً ، أرسل خلالها للسلطان الكثير من الأموال[1] .وهكذا نجد أن أحفاد المسبع قد فشلوا في استعادة سلطتهم مرة أخرى . ودانت كردفان لسيطرة سلاطين الفور ، وكونت مقدومية كان عليها المقدوم مسلم حين جاء الدفتردار لضمها إلى أملاك محمد على [2].

كما كان إقليم كردفان سبباً دائماً في النزاع الذي يحدث بين سلطنتي دارفور وسنار ، وذلك لرغبة كل من السلطنتين في إخضاع هذا الإقليم لسيطرتها ، لذا كان تارة يقع تحت نفوذ الفونج وتارة أخرى تحت نفوذ الفور ، ولكن قبل أن يخضع الإقليم نهائياً للفور كان قد خضع للفونج لفترة من الزمن .

فقد أراد سلطان الفونج بادي أبو شيوخ (1714 – 1752) الذي بلغت سنار في عهده أقصى اتساعها – بعد أن تم له النصر على جيش الحبشة – أراد أن يمد سلطاته إلى إقليم كردفان ليطعن سلطنه دارفور – التي كانت تزاحم سنار تجارياً – من الخلف . فسار جيش سنار واشتبك في حرب مع المسبعات وتمكن أخيراً من إلحاق الهزيمة بهم ، وبذلك صارت كردفان جزءاً من سلطنة بادي ... الذي نصب الشيخ محمد أبو لكيلك زعيم الهمج [3]. -لما قام به من مجهودات في هذه الحرب – حاكماً على كردفان .

ولكن نفوذ الفونج لم يستمر طويلاً ، بسبب انشغال سنار بمشاكلها الداخلية ، فقد كان بادي هذا آخر السلاطين الأقوياء ، وبعده صار لأصحاب السلطة الحقيقية [4] . وبسبب هذه المشاكل عاد الشيخ محمد أبولكيلك إلى العاصمة سنار مما أتاح الفرصة للمسبعات في أن يعيدوا نفوذهم على كردفان بعد سبع سنوات تقريباً من سيطرة سنار عليها ، ولم يستتب الأمر بعد ذلك في سنار حيث نشب النزاع بين الهمج أنفسهم بعد وفاة أبو كليلك فانشغلوا بالفتن والدسائس فيما بينهم مما أدى إلى إهمال شؤون البلاد وتعريضها للخطر الخارجي ، وهكذا استمر الحال بين

---

[1] نعوم شقير : المرجع المذكور : (102 – 131).
[2] شبيكة : المرجع المذكور ، صفحات : (127 -128).
[3] شبيكة : السودان في قرن ، ص 3.
[4] شبيكة : السودان في قرن ، ص:3.

الحكام ومنافسيهم حتى جاء جيش الفتح بقيادة إسماعيل باشا [1] ودخل سنار دون مقاومة وقضى على سلطنتها.

أما العلاقات بين سلطنتي دارفور وسنار فقد كانت قائمة وكثيراً ما قامت الحروب بينهما . ومن ذلك ما حدث في عهد السلطان بادي الأحمر سلطان سنار حين اشتدت الخصومة بين سنار ودارفور ، ووصل إلى علم أحمد بكر (1682 – 1752م) سلطان دارفور مقدار الضعف الذي أصاب سلطنة سنار في ذلك الوقت ، إلى جانب ما بلغه أن سلطانها قد سبُه علناً ، فأتخذ من هذا سبباً لغزو سنار ولفتح طريق تجاري لأهل الغرب إلى سواحل البحر الأحمر ؛ حيث كان الفونج يحتكرون هذه التجارة .

غير أن الجيش الذي أرسله السلطان لم يلتحم مع جيش سنار بسبب تدخل الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحسي – وهو من كبار رجال الطريقة الشاذلية - نتيجة استغاثة السلطان بادي به ، فحال هذا التدخل دون وصول جيش الفور [2] ويعكس هذا ما كان للفقهاء ورجال الطرق الصوفية من كلمة مسموعة لدى السلاطين .

وربما كان التنافس الشديد بين الدولتين سبباً في أن يجد من يهرب من وجه سلاطين دارفور الترحاب من سلاطين سنار ، فقد وجده الأمير خميس – وهو من أفراد الأسرة الحاكمة في دارفور – حين فر إلى سنار ، حتى أنه صار من القواد الذين يعتمد عليهم ، فقام بمجهود كبير في انتصار سنار على الحبشة وربما كان لهذا الأمر يد في إرسال سنار جيشاً للاستيلاء على كردفان انتقاماً من دارفور .

ولم تكن العلاقات بين دارفور وسنار دائماً سيئة ولم يكن العداء هو طابع العلاقات ، بل كثيراً ما كان الود يسود بين الطرفين . إلا أن تضارب المصالح في إقليم كردفان هو الذي كان على رأس الأسباب المؤدية إلى العداء لأن سلاطين دارفور نظروا إلى كردفان على أنها جزء من بلادهم ، باعتبار أن الخطر يتهددهم إذا ما خضعت لقوى أجنبية .

---

[1] المرجع السابق ، ص 3 .

[2] عبد المجيد عابدين : دراسات سودانية ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، ص:92..

لذا فلم يكن في مقدورهم أن يتركوها في يد دولة أجنبية معادية . وهذا ما حدث عندما استولى الدفتردار على كردفان ، فقد أوجس سلطان دارفور خيفة من الخطر الذي يتهدده ، فأتخذ الإجراءات الأمنية ما يؤمن سلطنته من أعدائه ، مثل مراقبة الحدود الشرقية والتشكك فيمن يأتون إلى دارفور من الأجانب ومراقبتهم ، خاصة إذا كانوا من البيض ، ولم يكن من السهل على هؤلاء الخروج من دارفور بسهولة ظناً من أن يكونوا جواسيس لمصر[1].

كانت العلاقات التجارية بين دارفور وأقاليم السودان قوية ومستمرة، لأن من الطبيعي أن تدوم هذه العلاقات وتتوطد لتداخل الأقاليم ، ولأن إقليم كردفان كثيراً ما لعب دور الوسيط بين دارفور وسنار وأقاليمها ، إذ إنه كثيرا ما تمتد حدود دارفور شرقاً حتى تلامس النيل أو تقترب منه وتارة أخرى تمتد حدود سنار غرباً حتى حدود دارفور الأصلية . وإذا ما استقلت كردفان تلعب دور الوسيط بين السلطنتين .وفي كل الحالات نجد أن الترابط موجود بسبب القبائل المتداخلة والهجرات المستمرة وارتباط سلطنة دارفور الإسلامية بالعالم الإسلامي ومن بينه سلطنة سنار التي توجه إليها طلاب دارفور وأتى فقهاؤها إلى دارفور للتدريس فيها فوجدوا تشجيعاً من سلاطينها للقدوم إليها [2].

ولم يكن قدوم الطلاب قاصراً على مدينة سنار وحدها بل قصدوا كثيراً من المدن التي اشهرت بالدراسات الدينية في وادي النيل مثل مدينة الدامر التي نالت شهرة واسعة فكانت مرموقة ، حيث كان كثير من سكانها من العلماء ورجال الدين لارتباطهم بالأزهر الشريف ، لذا فقد كان يؤم مدارسها الطلاب من مختلف الجهات. من دارفور وكردفان وكذلك من سنار [3].

هذا إلى جانب أن الحجاج القادمين من دارفور وغيرها من المناطق التي تقع إلى الغرب منها ؛ كانوا يعبرون هذه المناطق في طريقهم إلى الحجاز ، وكثير منهم كان

---

[1]. دفتر رقم (24) ، معية تركي ، وثيقة رقم (266) بتاريخ 13 شوال سنة 1241هـ ، من الخطاب العالي إلى الأغا السلحدار مأمور أسيوط. 354.

[2] حسن أحمد محمود : المرجع المذكور ، ج1 ، ص:354.

[3] Bruchardt , J.L. :Travelo in nubia london 1919 P.29

يستقر ولا يعود لمسقط رأسه ، ولا شك أن هذه العلاقات الاجتماعية والثقافية ، قد دعمتها العلاقات التجارية ، فالطلاب والحجاج كانوا يسيرون مع التجار للوصول إلى أغراضهم ، لذا لعبت التجارة دوراً كبيراً ورئيسياً في العلاقات بين دارفور ومناطق الشرق . وقد حظيت مدن كثيرة في دارفور بمكانة تجارية عظيمة مما جعلها مقراً لكثير من التجار الأجانب ، ومن بين هذه المدن مدينة كوبي السابق ذكرها والتي استقر فيها من الأجانب تجار كردفان والمحس ودنقلا ؛ وكانوا يمثلون الأغلبية بين سكان المدن [1] . أطلق على هؤلاء التجار اسم الجلابة تمييزاً لهم عن السكان الأصليين للبلاد ، وكان لهم شيخ أو رئيس ، ويشترك شيخهم مع الشخصيات البارزة في الدولة في تقديم الهدايا للسلطان في المناسبات العديدة، مما يدل على ما كان لهم من وزن كبير في المجتمع الفوراوي . كما كان تجار دارفور يقيمون في الأبيض باعتبار أنها مركز مهم [2] لتجارتهم ومنها يقصدون مناطق السودان المختلفة .

ونلاحظ أن هنالك جاليات تجارية في مناطق تقلي وكردفان و دارفور تتجت من هجرة التجار إليها ، وقد لعب تشجيع السلاطين للتجارة دوراً كبيراً في تنشيط التجارة املاً في تقوية العلاقات التجارية بين بلادهم ومناطق السودان الأخرى ، وساعد على ذلك أن إقليم دارفور كان مخزناً كبيراً لسلع تجارية غزت أسواق السودان [3] ، وكان كثير من التجار الذين يقع على أكتافهم النشاط التجاري وعلى الأخص تجار كردفان لهم زوجات في شندي والأبيض ودارفور وهي المحطات الرئيسية لتجارتهم ، وفيها يقضون أوقاتاً طويلة إما للحصول على السلع أو لحين تصريف بضاعتهم التي جاءوا بها وهكذا [4]. نعتقد إن أسرهم التي تقيم في هذه المناطق كانت تسهل لهم مهام البيع والشراء وتقوم بدور فعال في مساعدتهم لأنه من الصعب على التجار المتنقلين البقاء لفترة زمنية طويلة في مكان واحد انتظاراً لتصريف سلعهم أو للحصول على سلع أخرى ، لذلك كانوا يتركون هذه المهام لأسرهم المقيمة ويجدون منها يد العون في

[1] Burkhart , J.L. Travel in Nubian lodon Pp:240-241. 9

[2] نسيم مقاوت : المرجع المذكور ، ص: 425.

[3] المرجع السابق ، ص: 424.

[4] Burkhart :op ci; Pp:316-319

تذليل كثير من الصعاب ، وكان التجار يتفرغون لإيصال السلع إلى الأماكن المطلوبة ، وربما كان وكلاؤهم يقومون بالدور الذي تقوم به عائلاتهم لمن لم تكن له عائلة ولمن له تجارة واسعة فيقومون بدور الوسيط ، وفي الغالب أن هؤلاء التجار كانوا من ذوي الثروات المتوسطة والكبيرة.

إن تجارة دارفور مع كردفان كانت كبيرة ومهمة [1]. وكانت مدينة شندي تشكل مركزاً مهماً من مراكز التجارة مع دارفور وكردفان ومستودعاً كبيراً لسلعها ، فهي نقطة التقاء لتجارتها مع تجارة مصر وسنار ، ومن شندي أو سنار أو بربر . تتجه طرق القوافل إلى سواكن على البحر الأحمر ثم إلى الحجاز وإلى مصر أيضاً[2].

أما عن حركة النشاط التجاري بين شندي من جانب وكردفان ودارفور من جانب آخر ، فقد نشطت نشاطاً ملحوظاً قبيل الفتح التركي المصري للسودان ، لأن تجارة دارفور عن طريق الأربعين مع مصر كان قد أصابها الركود كما سبق ذكره. لذلك تحولت هذه التجارة بثقلها إلى الشرق . وكان يحدث مثل هذا كلما أصابها عائق من العوائق .

وكان طريق القوافل من الأبيض إلى شندي يسوده الأمن ، وتستغرق الرحلة ما بين أربعة وخمسة عشر يوماً[3]، وقد تتعرض القوافل أحياناً لهجمات قطاع الطرق ولاسيما إذا كان عدد أفراد القافلة قليلاً ، لكنها في الغالب الأعم تجيئ وتذهب في أمن واطمئنان ، وليس هنالك ما يضايقهم عدا الضرائب الجمركية التي يفرضها عليهم الملوك عندما يعبرون أرضهم [4].

تأتي القوافل من كردفان إلى مناطق شندي وهي محملة بالرقيق الذي يجلب أغلبه من كردفان ودارفور وتجارته كانت رائجة ، وكذلك كان يأتي الصمغ والفلفل واللبان والنطرون والعرديب والتمر هندي وششم _ دواء للعيون - والبسلة

[1] نعوم شقير : المرجع المذكور ، ج2،ص:146.
[2] شبيكة : السودان في قرن ، صفحات : (7 – 8).
[3] نسيم مقار : المرجع المذكور ، ص: 402.
[4] شبيكة : المرجع السابق ، ص: 8.

الصغيرة لاستخدامها عقوداً تتزين بها النساء ، وهي تأتي من دارفور ، إلى جانب المصنوعات الجلدية وغيرها [1]، وتعود وهي محملة ببعض سلع هذه المناطق وعلى رأسها السحلب والمحلب والكحل والخرز والتوابل خاصة القرنفل الذي كانت له سوق رائجة في مناطق الغرب وبعض من المصنوعات المعدنية والدمور والكتان ، وكان الصنفان الأخيران يوردان من شندي إلى سنار ومصر على التوالي ، إلى جانب بعض الملابس الحريرية المستوردة من الحجاز ، وهي اللباس المفضل لزعماء القبائل ، وكذلك البن كان من بين السلع المصدرة إلى مناطق الغرب [2].

وذكر نسيم مقار نقلاً عن ود نجتين بأن دنقلة قبل حملة فتح السودان أو أيام فترة المماليك صارت سوقاً مهمة يأتي إليها التجار من مختلف جهات السودان ، كما جاءوا إليها من دارفور يعرضون بضائعهم بأسعار مغرية تعادل نفس الأسعار التي تباع بها في القاهرة [3].

وإذا كان ما ذكره بوركهارد من أن طريق التجارة بين دنقلا وكردفان قد انفتح منذ وصول المماليك إليها فذلك يؤيد ما ذكر على لسان ود بجتن . [4] ولا يعتقد أن هذا الانفتاح قد حدث فقط في ذلك الوقت ، لأن التجارة بين دنقلا وأقاليم الغرب كانت موجودة وطرق القوافل مسلوكه قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، فالهجرات منذ القدم اتجهت من مناطق دنقلا غرباً . لكن الجديد في هذا أن حجم التجارة قد أزداد بشكل ملحوظ ، وملفت للنظر بسبب أن تجارة أقاليم غرب السودان مع مصر في ذلك الوقت قد أصابها كساد ، فتحول جزء كبير منها – إن لم يكن كلها – نحو دنقلا ، إلى جانب أن المماليك الذين كانوا غير راضين عن الوضع في مصر يهمهم تحويل التجارة عنها كنوع من الحرب الاقتصادية ، هذا إلى جانب رغبتهم في الاستفادة منها ، لذا فلا غرابة إذا ما تحول كثير ممن كانوا يتوجهون من دارفور لمصر إلى مناطق دنقلا لتكون سوقاً رائجة في ذلك الوقت ، وعليه فإننا نستطيع القول

---

[1] Burkhart :op ci; Pp:294-318

[2] Ibid P.319

[3] نسيم مقار : المرجع المذكور ،ص: 394.

[4] Burkhart :op ci; Pp:398-414

بأن التجارة بين دنقلا وكردفان ودارفور كانت قائمة أصلاً ، غير أن ازدهارها واضمحلالها أو كسادها كان يتم حسب الظروف والملابسات.

يتضح مما تعرضنا له في هذا المجال أن علاقات دارفور كانت قائمة وكانت قوية مع أقاليم سنار المختلفة وفي كثير من أوجه الحياة ، كما كانت علاقاتها وطيدة مع مصر وقامت بدور الوسيط بينها وبين الأقاليم الواقعة إلى الغرب منها ، خاصة في المجال الاقتصادي ، ولم يكن في مقدور مصر أن تتخلى عن تجارة سنار ودارفور ، وكان انقطاعها عنها بسبب أو لآخر بسبب الضيق الشديد لها ، وعليه فلا عجب إذا كان من أهم أهداف محمد على باشا استغلال تجارة هذه المناطق لمصلحته، لذا أرسل حملتين إلى الجنوب أحداهما إلى سنار والأخرى إلى دارفور لضمها إلى دولته.